النقائض

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

كثير من نقائض الاخلاق ليس بنقائض ، ولا سيما في أخلاق العظماء . وانما يبدو لنا كذلك لاننا نخلط بين الباعث والاثر أو ننظر اليه من وجهة غير وجهته فنفهمه على معنى غير معناه ، فاذا فرقنا بين باعث الخلق وأثره أو نظرنا اليه من وجهته المستقيمة بدا لنا في بساطة لا نقيضة فيها ولا التواء ، وعلمنا ان كثيراً من العظماء الذين نحسبهم ألغازاً مبهمة وعقداً معضلة هم غير ذلك في حقيقة أمرهم بل هم أحق بان يعجبوا من جماهير الناس لانهم يحسبونهم ألغازاً وما هم بالغاز ويرونهم عقداً وما هم بعقد

والبساطة هي الصفة الغالبة على نفوس العظماء حتى ليتقارب الشبه بينهم وبين الاطفال ويخيل الى من يتقدم انهم أغرار جاهلون فيبدأ العجب عنده من جديد : عجب الانسان من هؤلاء الافذاذ الخارقين للمألوف الذين يفوقون كل الناس في ناحية وقد يفوقهم كل الناس في ناحية أخرى ، وانهم في الحقيقة لفي مستوى واحد وانما الناس هم الذين يرتفعون حولهم ويهبطون فينظرون اليهم كأنهم في مستويين

ألاحظ ذلك كلما قرأت سيرة عظيم من عظماء العلم والادب أو الاعمال ، وألاحظ معه ان عجب الناس من تناقض أولئك العظماء هو الأحق بالعجب في أكثر الاحوال ، فالجبل الذي يبدو أخضر من ناحية وأجرد من ناحية أخرى ومثلوجاً في أعلاه ومتقداً في سفوحه لا يتناقض مع نفسه ولا مع قوانين الطبيعة ، ولكن التناقض انما يكون في عقل الناظر الذي يريد من الجبل السامق أن يكون كالقبضة الصغيرة خضراء دافئة واحدة أو جرداء دفعة واحدة ، ومثلوجة كلها أو متقدة كلها ، والا كانت من الشذوذ الذي لا يقاس لعلى قياس

* * *

في ترجمة « لنكولن » التي كتبها أميل لدفج وصدرت بالانجليزية حديثاً نماذج شتى من هذه الاخلاق التي تبدو للناس كالنقائض وما هي من النقائض في شيء

كان لنكولن يحيد عن طريقه لينقذ خنزيراً تورط في الوحل ، ولكنه كان لا يمد يده الى امرأته ليأخذ بيدها في النزول أو الارتقاء كما يصنع السادة الظرفاء

أفهذا تناقض في الاخلاق ؟

نعم ، كما يقول السواد الأعظم

ولا ، كما تقول الحقيقة البينة

وانما يخطيء السواد الأعظم فيحيل خطأه على طبيعة الرجل المظلومة ، بل يظن السواد الاعظم انه معصوم من الخطأ فكل ما يستغربه فلا بد أن يكون غريباً وكل ما يستنكره فلا بد أن تكون التبعة فيه على سواه

وخطأ السواد الأعظم هنا أنه يخلط بين الرحمة في عرف المجتمع والرحمة في طبيعة النفس الانسانية فالرجل « الظريف » الذي يمد يده الى امرأته ليساعدها على النزول أو على الارتقاء لا يفعل ذلك لانه يرحمها أو لانها عاجزة عن الحركة ، كلا ! بل يفعله لانه مضطر الى فعله بحكم العرف الذي لا يفقه معناه ، بل بحكم العرف الذي يناقض نفسه بنفسه لانه يفرض في المرأة عجزاً عن الحركة ويفرض فيها رشاقة نظرية ينبغي أن تفوق رشاقة الرجال : ولا رحمة هناك ولا مساعدة ولا لطافة لان المرأة التي تعان على النزول أو الارتقاء قد تكون أقدر من زوجها وأسرع في مشيتها وأصبر على السير والوقوف ، فهو اذا مدّ اليها يده لا يصدر إلا عن أوضاع آلية لا علاقة لها بالرقة واللطافة بل كثيراً ما تدل على الغلظة والغباء ، وإلا فما أغبى الرجل الذي يعين امرأة على النزول من رابية قريبة وهو يزدريها في ذات نفسه اذا لم تكن من رشاقة الحركة بحيث تقوى على النزول !

أما اعانة خنزير تورط في الوحل فلا تكون إلا لرحمة في طبع الانسان : رحمة مطبوعة تغلبت على العرف الشائع الذي ينظر الى الخنزير نظرة السخرية أو نظرة الاشمئزاز

فهذه القصة المستغربة أحجى أن تسمى دليلاً على استقامة في طبع « لنكولن » لا على التواء أو غرابة فيه، فهو اذا رحم استقامت رحمته الى وجهتها غير آبهة لعرف يعترضها أو عادات تحيد بها ، واذا لم يكن ثمة داع الى الرحمة فهو يأبى أن يتكلفها ويستثقل الرياء الذي لا تستثقله الطبائع العوجاء

***

وصورة نيتشه معروفة

وآراؤه في معاملة الضعفاء معروفة

فمن نظر الى تلك الصورة أو أطلع على تلك الآراء تمثلت له نفس نيتشه في هيئة ضارية وظنه من وحوش الآدمية التي تعب الدماء عباً وتصيب لذتها الكبرى في الفتك والعبث والايذاء

ولكنك تطلع على رسائل نيتشه الى أصحابه ومراسليه فلا تجد إلا وداعة ولطفاً واخلاصاً في القول وصفاء في الطوية ، فتعجب لهذا التباين بين الرجل والفيلسوف ، وتسأل : أفهنا تناقض ؟ والجواب نعم ، ولا

« نعم » على حسب الظاهر ، و« لا » على حسب الحقيقة . فالذين يقسو عليهم نيتشه غير الذين يعرفهم بالمقابلة أو بالمراسلة ، والذين يقسو عليهم هم الناس في « الفكرة » أو الناس في التصور ، أما الذين يلقاهم أو يراسلهم فهم الناس في اللحم والدم أو الناس ذوو الوجوه والعواطف والنفوس والعلاقات التي يتصل بها الحب والولاء . وأنت قد تسمع عن قتل مليون انسان في حوادث التاريخ فلا تجيش لك نفس ولا تدمع لك عين ، ثم تقرأ قصة موضوعة عن انسان واحد فتبكي لمصاب يحل به دون القتل ودون الهلاك ، لان هذا الانسان الواحد انسان في اللحم والدم قد اتصلت بينك وبينه العواطف وعرفته على نوع من الحياة المنظورة وان لم يكن له وجود ، أما المليون الذين قتلوا في حوادث التاريخ فهم رقم أو كلمة أو فكرة لا تمس قلبك ولا تمت اليك بقرابة ، وان كانوا زمناً من الأزمان أحياء ولم يكونوا أشباحاً من أبطال الروايات

وكثيراً ما تكون الوداعة سبباً من أسباب القسوة والضراوة كما نشاهد من أخلاق بعض الودعاء،

أو لا تذكر قصة الرجل الذي ضرب الطفل لانه لوح للكلب بالطعام فلما دنا منه قذفه بحجر ؟ هذه قصة نرى فيها القسوة التي تصدر عن الوداعة وفرط الرحمة . فان الرجل قد غضب لكلب يؤذى فاستدعى الطفل الذي آذاه ولوح له بالحلوى وضربه حين دنا منه كما ضرب هوالكلب المخدوع، فلو اننا أخذنا صورة الكلب والطفل وصورة الطفل والرجل كلا منهما على حدة لظهر لنا ان الرجل قاس كالطفل أو أشد منه قسوة وا كبر منه وزراً ، ولكننا نضم الصورتين معاً فنعلم حينئذ ان ضرب الكلب قسوة ولكن ضرب الطفل فرط وداعة ، وان الضربين لهما مظهر واحد ولكنهما في البواعث جد مختلفين

وربما اتفق لبعضنا كثيراً أن يرى صديقاً وديعاً دمثاً يغضب ويحتدم فاذا هو مارد لا يطاق ، فلو انه كان قاسياً خشناً لما غضب ذلك الغضب ولا احتدم ذلك الاحتدام ، لانه ينال من الناس فوق ما ينالون منه ويظلمهم قبل أن يظلموه ، ولكنه على وداعته ودماثته يجاوز الحد في الغضب لانه يعلم في سريرته مقدار ما صنعه وصبر عليه ليتقي الناس ويعيش معهم بالحسنى فما أغنى عنه ما صنع ، فيجن جنونه ويطيش حلمه ويبالغ في القسوة لانه يبالغ في انكارها من القساة

رب هيجة نفس كانت أدل على الرحمة من ظاهر السكينة واللين

* * *

ويتفق كذلك كثيراً ان نرى أناساً من كبار الناطقة وذوي العارضة القوية ينفرون من مناقشة الحجة بالحجة ويجنحون الى الامر والاستبداد ، فهل معنى ذلك ان الحجة والاستبداد نقيضان ؟

لا نظن ذلك ، وانما يستبد الناطقة أحياناً لانهم ممتازون في القوة المنطقية امتيازاً لا مثيل له بين جمهرة الناس ، فهم لهذا يعلمون عجز الناس عن فهم المسائل التي تلوح لهم في حكم البديهيات ، ويجربون المنطق والحجة فيعجبون لان الحقائق الظاهرة تخفى عمن يخاطبونهم كل ذلك الخفاء وتفتقر في الابانة عنها الى كل ذلك العناء ، فيطرحون الحجة لانها لا تفيد ويعمدون الى الامر لانه أوجز طريق ، ومثلهم في ذلك مثل رجل يرى على مسافة مائة ميل يمشي مع جماعة لا يرون إلا على مسافة أميال ، فماذا يصنع اذا هو رأى الخطر من بعيد ولم يروه ولم يصدقوه ؟ ان استطاع أن يأمرهم ويعدل بهم عن وجهتهم فلم يفعل فذلك هو العجيب

* * *

كل ما في نفوس العظماء بسيط غاية في البساطة ، ولكنه مع هذه البساطة كبير جليل لا يحده النظر القصير ، ومن هنا تختلف النظرات وتلتبس الصفات على الناقدين فيحسبونها ألغازاً وما هي بألغاز ، ولعل العظماء يعجبون من نظرة الناس اليهم أشد من عجب الناس حين ينظرون الى العظماء

عباس محمود العقاد